الجسد الأنثوي تاريخاً و تراثاً و ثقافةً

د. طانية حطاب

جامعة عبد الحميد بن باديس، مستغانم/ الجزائر

الملخص:

يعد الجسد محورا لكل شيء. إنّه الشكل الذي تنطلق منه وتلتقي عنده كل الأشكال، وهو أساسا الشكل القار القابل لاستيعاب سلسلة من الأفعال والممارسات الإنسانية كالممارسة الجنسية. إنّه حاضر في كل شيء، في الفن والفلسفة والأسطورة والأدب والعلم والسياسة والأخلاق. كل شيء يدور حول الجسد وما يثيره من لذة حسية ومعنوية. ولأنّ الجسد الأنثوي مرتبط مباشرة بهذه اللذة، فإنّي ارتأيت أن أسلط الضوء عليه من خلال كشف العلاقة الجدلية بينه وبين الجنس كممارسة تتجلى من خلالها مواصفات هذا الجسد، وكذا الكشف عن تحوّل تصوّر الجسد الأنثوي من المقدس إلى المدنس عبر تغريبه وتصميت المرأة باعتبارها كائنا من الدرجة الثانية أو الثالثة في المجتمع الذكوري المتسلّط الذي ينظر إليها على أنّها خلقت فقط من أجل خدمة الذكر وإرضاء غرائزه الجسدية من جهة، والحمل وتربية الأولاد من جهة ثانية على الرغم من أنّ الإسلام قد منح المرأة مكانة مرموقة وحظاها بالحرية مثلها مثل الرجل، وجعل أساس العلاقة بينهما مودة وسكينة لا عنفا وجورا.

استنتاجات:

- يشكّل الجسد بؤرة تتمركز حولها كل العلوم والمعارف والفنون باعتباره كيانا ثقافيا متعددا.
- وشم الجسد الأنثوي وشما ثقافيا واجتماعيا جعله وعلى مر الزمن مكمن ضعف وموضع نقص إذا ما قورن بنظيره الذكوري.
- لم يكن التمييز بين المرأة والرجل وليد التمايز الجنسي المفضي إلى التكامل البيولوجي بينهما، بل هو وليد ثقافة مجتمعية سائدة، ونظرة ذكورية استعلائية فيها الكثير من الظلم والجور.
- لطالما ارتبط الجسد الأنثوي بالجنس ربطا قسريا، ونظر إليه نظرة جعلته موطن إغراء وشهوة وفتنة، وبالتالي تمّ تغريب الجنس وتحويله من ضرورة جسدية فطرية ملحة إلى فعل مشين مقترن بالخطيئة خاصة إذا كان خارج مؤسسة الزواج المعترف بها اجتماعيا.

تمهيد:

الجسّد وجود وعلامة وثقافة، له من الخصوصية ما لا يمتلكه غيره. لا يتحقق فعل الوجود العام ويكتمل إلاّ بوجود الجسد الإنساني وتحقق كينونته. والتعامل مع الجسد فيه من الخصوصية الشيء الكثير، خاصة إذا كان الأمر متعلقا بالجسد الأنثوي الذي يملك تميّزه التاريخي والثقافي والاجتماعي. غير أنّ المتتبع للفكر الإنساني في مساره التاريخي يلفي نظرة دونية للمرأة وجسدها بشكل يجعل منها ومن أنوثتها موضع شك وارتياب، ويربط بينها وبين الجنس الذي هو ضرورة بيولوجية ملحة ربطا فيه الكثير من التدنيس بعد أن كان الجنس طقسا مقدسا لدى الشعوب والحضارات القديمة السابقة.

تحاول هذه الورقة الكشف عن موقع الجسد الأنثوي في الفكر الإنساني، وتسليط الضوء على فعل التصميت الذي طال هذا الجسد في ظل وجود ثقافة ذكورية سائدة، ومحاولة تغريب الجنس بطريقة فيها الكثير من العنف والجور.

* مركزية الجسد في الفكر الإنساني:

إنّ الحديث عن الجسد إنّما هو حديث عن علامة فارقة تجتمع عندها كل العلامات وتلتقي. إنّه البؤرة التي تتمركز حولها جميع المعارف والعلوم كعلم النفس، وعلم الاجتماع، والفلسفة، والدين، والفن، والأنثروبولوجيا وغيرها.. وهو قبل ذلك كله، بداية للوجود ومكمنه، وموطن للوجدان والذاكرة.

قد يُنظر إلى الجسد ظاهريا، كما قد ينظر له باطنيا بما يحويه من ألغاز، وما يحمله من أسرار. ولهذا فإنّ التعامل معه من أصعب ما يكون، إذ لا يمكن بمكان أن نتعامل مع الجسد إلاّ من خلال سياقاته التاريخية والاجتماعية والثقافية.. فهو بهذا المعنى" كيان ثقافي متعدّد، يستوجب منظورية تحليلية لا تغيّب الطابع المعرفي والفكري الذي يخترقه" (1)

في بداية التعاطي مع الجسد باعتباره كيانا موحدا، تطالعنا ثنائية (الذكر/الأنثى) أو (الرجل/المرأة)، وهي أول مظهر من مظاهر التخصيص لهذه الوحدة التي يتميّز بها الجسد. والحقيقة أنّ مثل هذا التمييز يرجع إلى اختلاف جسديهما بيولوجيا، فكل منهما له صفات جسدية ومعنوية مختلفة عن الآخر. فإذا كان جسد الرجل مميّزا بقوته وعضلاته وصلابته، فإنّ جسد المرأة مميّز برقته وليونته وتضاريسه التي تجعل من المرأة أنثى، لأنه ليس كل امرأة أنثى، " فالتأنيث –إذن– صفة للجسد تعرض له وتلابسه، ثمّ تزول عنه

وتغادره. فإذا قيل عن المرأة إنها أنثى فهذا يعني أنها تتصف بصفات الأنوثة المعتبرة ثقافيا. ولا تطلق هذه الصفة على أيّ امرأة، ولا يقال هذه امرأة أنثى إلاّ للكاملة من النساء." (2)

ولأنّ جسد الرجل غير مثير لما فيه من خشونة وصلابة، وجُعلت الإثارة من نصيب المرأة، فإنّ الاهتمام كلّه انصبّ على جسدها باعتباره موطن الإثارة والرغبة واللذة. واختزلت النظرة إلى المرأة لا ككيان له هويته وذاتيته المقدسة والمستقلة والمساوية لهوية الرجل، بل نُظر إليها من خلال منظارين:

" أ- المرأة كموضوع للرغبة والغواية، ومصدر للفتنة، وبؤرة أثيرة للمشاهدة والحديث معا، ذلك أن حضورها مقترن بجغرافية جسدها، وتضاريس عريها، التي لا تحترز عين من جَوبه، وإطالة النظر إلى نتوءاته وتجاويفه (...)

ب- المرأة كذات مرصودة للألم، وجسدها مباح للعنف، وكيان مازوشي يتلذذ بسادية الرجل." (3)

وغير خاف، أنّ التمييز بين الرجل والمرأة لم يكن وليد التمايز الجنسي المفضي إلى التكامل البيولوجي بينهما، بل هو وليد الثقافة المجتمعية والتراكمات الفكرية، والنظرة الاستعلائية للرجل تجاه المرأة. تلك النظرة التي جعلته يقصيها على الصعيدين الفكري والثقافي، ويختزلها في مجرد جسد مليء بالشهوة والفتنة وُجد أساسا لإرضائه.

- **المرأة وفعل التصميت في الثقافة الذكورية:**

تعود جذور هذه النظرة الدونية تجاه المرأة أولا إلى فكرة خلق حواء من ضلع آدم، وهو ضلع أعوج من الجهة اليسرى. وقد رسّخت هذه الفكرة كل من الميثولوجيا التوراتية والميثولوجيا الإسلامية. وثانيا، إلى فكرة خروج آدم من الجنة بسبب حواء، أي إلى فكرة الخطيئة الأولى. جاء في التوراة:" فأوقع الرب سباتا على آدم فنام. فأخذ واحدة من أضلاعه وملأ مكانها لحما. وبنى الرب الإله الضلع التي أخذها من آدم، امرأة. وأحضرها إلى آدم. فقال آدم هذه الآن عظم من عظامي، ولحم من لحمي. هذه تدعى امرأة لأنها من امرئ أخذت. وكان كلاهما عريانين آدم وامرأته وهما لا يخجلان، وكانت الحية أحيل جميع الحيوانات البرية التي عملها الربّ الإله، فقالت للمرأة: أحقا قال الرب لا تأكلا من كل شجر الجنة؟ فقالت المرأة للحية من ثمر شجر الجنة نأكل وأما ثمر الشجرة التي في وسط الجنة فقال الله لا تأكلا منه ولا تمساه لئلا تموتا. فقالت الحية للمرأة لن تموتا، بل الرب عالم أنه يوم تأكلان منه تتفتح أعينكما وتكونان كالرب عارفين الخير

والشر. فرأت المرأة أن الشجرة جيدة للأكل وأنها بهجة للعيون وأن الشجرة شهية المنظر. فأخذت من ثمرها وأكلت وأعطت رجلها أيضا معها فأكل. فانفتحت أعينهما وعلما أنهما عريانان فخاطا أوراق تين ووضعا لأنفسهما مآزر." (4)

أمّا في الميثولوجيا الإسلامية والتي نرى نصوصها منقولة عن التوراة ومتأثرة بها في قصة الخلق والخطيئة، فقد جاء على لسان الطبري:" وأسكن آدم الجنة، فكان يمشي فيها وحشا ليس له زوج يسكن إليها، فنام نومة فاستيقظ، وإذا عند رأسه امرأة قاعدة، خلقها الله من ضلعه، فسألها من أنت؟ فقالت: امرأة، قال: ولم خلقت؟ قالت: تسكن إلي. قالت له الملائكة، ينظرون ما بلغ علمه: ما اسمها يا آدم؟ قال: حواء، قالوا: ولم سميت حواء؟ قال: لأنها خلقت من شيء حي، فقال الله له:" يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغدا حيث شئتما"، واعتمادا على أهل التوراة وأهل العلم وعن عبد الله بن عباس وغيره، أن الله أخذ ضلعا من أضلاعه من شقه الأيسر ولأم مكانه لحما، وآدم نائم لم يهب من نومته، حتى خلق الله من ضلعه تلك زوجته حواء، فسواها امرأة ليسكن إليها، فلما كشف عنه السنة وهبّ من نومته رآها إلى جنبه، فقال فيما يزعمون والله أعلم: لحمي ودمي وزوجتي." (5)

ونجد القصة نفسها تتكرّر عند ابن كثير والقرطبي وابن مسعود وغيرهم.. ومع أنّ القرآن الكريم لم يذكر قصة خلق حواء من ضلع آدم، إلاّ أنهم أجمعوا كلهم على أنها خلقت من ضلع أعوج فهي عوجاء، وأنها أصل الخطيئة وبسببها خرج آدم من الجنة.

إنّ ترسيخ الميثولوجيات الكهنوتية-أولا- والإسلامية لاحقا فكرة أن حواء/المرأة أصل الخطيئة ومبعث الشر، وأنّ آدم/الرجل إنما هو بريء وضحية، وربط المرأة بالحية وبإبليس، جعل الثقافة عبر تقادم الزمن تحكم على المرأة بالذنب، وتلحق بها أبشع الصفات كالخيانة والمكر والنقص والغواية، وصار ينظر لها على أنها جسد شبقي تزينه الشهوة، وتحرقه الرغبة، وتستهويه اللذة. فهو جسد وُجد لممارسة لعبة الجنس.

ومع أنّ ممارسة آدم وحواء للجنس لم تكن سببا في طردهما من الجنة، بل أكل الشجرة، إلاّ أنّ الثقافة الذكورية حكمت على الجنس حكما أخلاقيا، وحوّلته من كونه قيمة مقدسة وفعل محترم، إلى قيمة دنيوية وفعل محرم-إلاّ في حدود-، وربطت بين الجنس والخطيئة، أي بين الجنس والمرأة، " فالجنس قد تمّ تغريبه بسبب تلك النظرة المعتمة التي ربطته قسرا بمأتم الخطيئة الكونية الأولى، وأسلمته بالتالي إلى تلك الثقافة البطريركية-

الثيوقراطية، التي تميل إلى تدنيس حقائق الكون والحياة، وتربطها ربطا قسريا بالرموز المندثرة." (6)

إنه لمّا يثير الغرابة حقا، أن يتمّ تحويل الجنس من فعل مقدس إلى فعل مدنس مقترن بالخطيئة والعنف، إنه تحويل أيديولوجي، مع أنّ الفعل الجنسي الذي جمع آدم بحواء كان فعلا مقدسا بدليل أن الملائكة أمرت آدم أن يأتي زوجه وعلمته كيف يفعل ذلك كما جاء في الميثولوجيا الإسلامية.

لقد شكّلت قصة خلق حواء من ضلع أيسر أعوج مأخوذ من آدم الإطار المرجعي لقضية اضطهاد المرأة وقمعها في كل مراحل التاريخ الإنساني. وتمّ إقصاؤها وتصميتها عبر الزمن لتختزل في مجرد جسد هو ملك للرجل يفعل فيه ما يشاء.

" بداية يتوجه فعل التصميت نحو جسد المرأة كونها مفتاح الخطيئة من وجهة نظره–أي الرجل– ورغم أن تاريخ الكون هو أمومي(متريركي) بداية، إلاّ أنه في حقيقته المدونة إسلاميا بطريركي. وبدلا من أن يدشن هذا التاريخ من خلال المرأة، لأنها هي التي كانت أداة المعرفة الإنسانية، إذ ليست الشجرة المحرمة، سوى إشارة إلى بداية التاريخ البشري للعالم، أو بداية المعرفة. نعم لقد كانت هي المكتشفة، ولكنها أصبحت في الحقيقة المتداولة حتى الآن، في النصوص الدينية، ومن بينها الإسلامية، هي المتهمة والمذنبة. وأصبحت ملحقة بالرجل، تعيش على هامش نصه، مثلما خلقت حواء من ضلع آدم، حيث أسقط عليها الرجل كل إخفاقاته، واحتفظ بتلك الانتصارات التي حققها، بدلا من كل ذلك، إذا به يحاصرها بالتهم، ويبثّ في جسدها، كلّ ما من شأنه إظهارها منبعا للفجور والخراب والشرور." (7)

إنّ الرجل عبر تاريخه الطويل وعلاقته الدائمة بالمرأة، لم يستطع أن يستوعب دور شريكه الأنثوي في الحفاظ على الجنس البشري، ولا أن يتفهّم التغيرات الطارئة على جسد المرأة بصفة دورية كالحيض والنفاس. لهذا لطالما اعتبر دم الحيض عقوبة إلهية تطال جسدها للخطيئة الكبرى التي ارتكبتها حين عضّت الشجرة المحرمة. وقد رسّخت الميثولوجيا التوراتية وكذا الإسلامية هذه الفكرة، فهو دم مدنس يختلف عن دم القرابين المقدس. وهو رمزيا لعنة أدبية أصابت المرأة لأنّ الله لم يقبل توبتها، بينما قبل توبة آدم الذي كفّر عن خطيئته بافتدائه كبشا.

والواقع أنّ " الحقيقة البدهية التي تجبهنا بها الحياة، تتلخّص في استحالة استمرار النوع البشري اعتمادا على أحد الجنسين، فاستمرارها مرهون بإسهام موزّع بالتساوي

المطلق بينهما، ولكن هذه المساواة، البدهية من الناحية البيولوجية لم تستطع أن تظلّ نفسها في سيرورة الثقافة والحياة اليومية والتاريخ. وربما تجلّى السبب الرئيس للانقلاب على تلك المساواة القائمة بيولوجيا ومنطقيا، في ما يمكن أن نطلق عليه " إشكالية الأنوثة " بوصف الأنثى –من وجهة نظر الذكر– كائنا آخر مكتظا ومغلفا بالألغاز والأسرار، فهي كائن معرض دائما للتبدلات والتغيرات الحاسمة من الناحية الجسدية. وكان الجهل البشري بحقيقة تلك التبدلات وأساسها البيولوجي، وراء إخراج المرأة من صفتها البشرية، ورفعها إلى مراتب الألوهة، أو خفضها إلى درجة المسوخ ومراتب الحيوانات." (8)

ولمّا كان الأمر كذلك، أصبحت المرأة بجسدها الأنثوي مادة للثقافة الذكورية تمارس سلطتها عليه، وصفحة بيضاء يكتب الرجل فيها ما يشاء. وقد نتج عن ذلك أن كانت المرأة رمزا لفلسفة استسلامية انهزامية، لا تملك من أمرها شيئا، وهي إن تحرّرت من قيود الرجل، إنما تتحرّر فقط في فترتي الحيض والنفاس، إذ لا يطلبها ولا يرغب فيها لإشباع شهوته الجنسية، ولكنه للأسف تحرّر مع وهن وضعف.

***الجنس واستراتيجية التغريب/ المقدس والمدنس:**

إنّ الحديث عن الجسد– خاصة الأنثوي منه– اقترن مباشرة بمقولة الجنس الذي ارتبط هو بدوره بالشيطان/المرأة وبالعنف وبالرذيلة، باعتبار أنّ حواء أغوت آدم جنسيا عبر مفاتن جسدها حتى أكل من الشجرة المحرمة. ولهذا صار الحديث عن الجسد الأنثوي والجنس مليئا بالتابوهات، ويحيل مباشرة إلى الرذيلة والبغاء إذا كان خارج مؤسسة الزواج.

وممّا يثير التأمل هنا، أن نجد البغاء مقدسا لدى الشعوب القديمة، ذلك أنّ " مهنة البغاء قد وصلت أعلى مراحلها من الفن والرقي على يد الإغريق الذين وصلوا بحب الجسم الطبيعي للمرأة إلى حد مثالي في الفن، وإلى عبادة روحية في الدين. وقد روت كثير من المؤلفات قصة العاهرة فراين التي أقيمت ضدها دعوى في المحاكم، وعندما ضاقت بها الحجة والبيّنة وأشرفت على خسران الدعوى، كشفت عن جسمها أمام المحكمة " هذه حجتي" فربحت الدعوى. لقد كان تولّع الإغريق بجمال الجسم الأنثوي والتلذّذ بالعملية الجنسية نوعا من الاتّصال الروحي بالآلهة لا يمتّ إلى الفحش بصلة." (9)

فكلّ شعوب العالم القديمة قد مارست البغاء، وقد حظيت شخصية العاهرة بمكانة مرموقة عندهم، ونالت احترام رجال الدين والمعابد، فكان البغاء منتشرا لدى الهنود واليهود والإغريق واليابانيين وحتى سكان البحر الأبيض المتوسط. و" تحدثنا المكتشفات

الأركيولوجية والرقم الطينية عن طقوس البغاء المقدس في الحضارات القديمة. فالمعبد المقدس للإلهة عشتار كان يحوي على مجموعة من البغايا المقدسات اللواتي تقع عليهن ممارسة الجنس مع الأغراب نيابة عن بنات جنسهن، وكان الجنس يمارس كطقس ديني جاد بعيدا عن الرخص والدعارة، تمارسه بنات الطبقة الاجتماعية النبيلة ويحظين بذلك بشرف كبير يرشحهن للزواج من أكابر القوم بعد الانتهاء من طقوس الجنس المقدس والعبادة في الهيكل." (10)

إنّ ممارسة الجنس عند الشعوب القديمة كان نوعا من التمرين الروحي للتقرب من الآلهة، من هنا تنبع قداسته، ولم يكن أبدا ينظر إليه نظرة احتقارية إلاّ حين تحوّلت الفطرة إلى إيديولوجيا موجهة وجهة ذكورية. لهذا عملت الكنائس في القرون الوسطى على تسخير البغايا والمحظيات لرغبات الجمهور ترسيخا منها لفكرة إخضاع المرأة جنسيا وجعلها تابعة لسلطة الرجل.

" ففي القرن السابع عشر والثامن عشر، كان نظام المحظيات يحظى بشيء من رضى الكنيسة ومباركة السلطات الحاكمة، وتمتّعت المحظيات باحترام وتقدير لم تكن تحظى به حتى الزوجات. وصار المتزوجون يشكلون الغالبية العظمى من نسبة الرجال المتخذين محظيات وسراري. وكان القساوسة يحتفظون بالمحظية، ويظهرون معها في الأماكن العامة والاحتفالات الرسمية ولا يجدون في ذلك غضاضة." (11)

ولو عدنا إلى التاريخ العربي الإسلامي لوجدنا مثل هذا النظام قائما عند الخلفاء والوزراء، وهو نظام الجواري، فقد احتلت الجارية المملوكة في المجتمع العباسي مكانة لم ترق إليها حتى الزوجة الحرّة. وكان في كثير من الأحيان يُعتدّ برأيها في أمور السياسة وشؤون الرعية والبلاد. ولم تكن ممارسة الجنس مع الجواري فعلا آثما لأنها كانت مما ملكت أيمانهم.

هكذا نرى أنّ ممارسة الجنس قديما كانت فعلا له قداسته وإجلاله، وغالبا ما كانت هذه الممارسة مصحوبة بطقوس تزيد من حرارة اللقاء بين الرجل والمرأة كالرقص والموسيقى والعري التام أو الجزئي، خاصة وأنّ هذا الأخير لم يكن بالفعل الفاضح كما هو الآن في المجتمعات الحديثة. فنجد مثلا " أنّ العري لم يكن بالظاهرة المثيرة عند قدماء المصريين، فلقد كانت الفتيات يرقصن وهنّ عرايا، أو مرتديات عباءات مفتوحة من أمام– حول القارب المقدس– أثناء إجراء المراسم الدينية وبمصاحبة الموسيقى، وكنّ يعملن بعريهنّ التام أو الجزئي، على طرد الأرواح الشريرة." (12)

ولطالما نُظر إلى المرأة قديما على أنها رمز للخصوبة والنماء، فهي التي لها القدرة على الحمل والوضع، وهي قدرة لا يملكها الرجل. وقد حملت الأساطير هذه الدلالات ورسختها بفضل الطقوس التي كانت تقام في الاحتفالات الدينية خاصة. وهنا يصادفنا ما " يرويه يونج عن بعض القبائل الاسترالية من أنهم إذا جاء الربيع يحفرون حفرة في الأرض، ويحيطونها بالشجيرات لتمثل عضو الأنثى، ويرقصون حولها طول الليل، وهم ممسكون بالحراب أمامهم في هيئة تمثل عضو الذكر، ثم يقذفونها في الحفرة، وهم يصيحون:" ليست حفرة، ليست حفرة، بل فرج." [13]

وهذا إن دلّ على شيء إنما يدلّ على تصورهم للجسد الأنثوي لاعتباره مانح الحياة، وأداة التكاثر والتناسل، وعلى مفهومهم للجنس باعتباره حاجة ملحة تشبع غرائزهم، وتزيدهم قوة وعددا. ولا ندري كيف تحوّل الجنس من طبيعته الفطرية الغريزية إلى مفهوم إيديولوجي ارتبط مباشرة بالمرأة والرذيلة إذا لم يكن مؤطرا بإطار الزواج الشرعي. والملاحظ أن تطور المجتمعات الإنسانية بداية من المجتمع البدائي الأول مرورا بالمجتمع الزراعي وصولا إلى المجتمع الصناعي الرأسمالي قد استتبع تحوّلا ثقافيا تحوّلت فيه الأسطورة إلى أدلوجة زادت الرجل فحولة ذكورية وهيمنة سلطوية، وزادت المرأة امتهانا وتدهورا في وضعها الاجتماعي. فبعد أن كانت سيدة المقام في الأساطير القديمة، أصبحت مختزلة في جسد مليء بالشر، ولكنه الشرّ الذي لابدّ منه.

وخلافا للتصورات القاصرة والجزئية التي نظرت إلى المرأة كموضوعة للعبة الجنس فقط، فقد صوّرتها بعض الأساطير القديمة قدم الإنسان نفسه إلهة معبودة تحظى بالتعظيم والتقديس والإجلال بعدما أقصت عنها جانبها الجسدي المحسوس، وحوّلتها إلى بعد روحي تجلّى في الإلهة الأنثى، رمز الخصب والنماء والحب والجمال والحكمة، كأفروديت وعشتار وفينوس وديانا.. فأثينا مثلا إلهة العواصف والبروق " كانت وظائفها متعددة، فهي المبجّلة بين المعبودات، بصفتها الإلهة المقاتلة، وبصفتها إلهة الفنون والسلم، وبصفتها إلهة التفكير الحكيم. كما كانت حامية المدن وحارسة المعابد، وحمت أثينا الهادئة صناعات متعددة. وكانت قبل أن تشتهر المرأة العاملة راعية المعماريين والنجارين والنسّاجين والحائكين، كما حمت الخيول والثيران. وتدين شجرة الزيتون بثمارها إليها"[14]

وقد صوّرت الأساطير المرأة عموما إلهة وملكة وزوجة وفية وأمّا عظيمة وبطلة قومية، وأقصت تماما جسدها الأنثوي ذا البعد الشهواني، فهمّشته رغم أن نساء الأساطير كنّ فاتنات الحسن والجمال، ولكنه جمال لا يقودهن إلى الرذيلة، بل فقط إلى القيام

بالأفعال النبيلة. من هنا، يمكن القول إنّ المرأة في الأساطير القديمة امرأة منمذجة، وهي مثال يُحتذى به في العفة والشجاعة والبطولة التي تزاحم بطولة الآلهة الذكور.

ولم تنزل المرأة عن هذا العرش الذي قدّمته لها الميثولوجيات الضاربة في القدم إلاّ من خلال النصوص الكهنوتية والتوراتية التي بالغت في الإساءة إليها، واعتبار جسدها شكوة من العفن، ولم تر إليها إلاّ كموضوع للجنس، وهي أصل الخطيئة وسبب في نزول آدم إلى الأرض.

وإذا ما بحثنا عن صورة المرأة في المخيال العربي القديم، وكشفنا عن تصور العرب للجسد الأنثوي، لألفيناه منحصرا في منظارين:

أ- أن يكون جسدا مغريا، فاتن الجمال وبالغ الصّبا، ومانح الولد.

ب- أن يكون جسدا لا غاية منه ولا غرض، غاب عنه الحسن، وفارقه الخصب، فأصابه العقم والجماد.

وقد زخرت الأدبيات العربية بنصوص تشخّص الجسد الأنثوي الفاتن الذي يحوي كل مواصفات الجمال. وتفنن العرب منذ القدم في تجزيء هذا الجسد، وتصويره بكل تفاصيله صعودا ونزولا. فممّا جاء في تراثهم قول أعرابي: " أفضل النساء، أطولهن إذا قامت، أعظمهن إذا قعدت، أصدقهن إذا تابت، وإذا ضحكت تبسّمت، وإذا غضبت حلمت، التي تطيع زوجها وتلتزم بيتها، العزيزة في قومها، الذليلة في نفسها، الودود الولود التي كلّ أمرها محمود." (15)

هذا ونجد نصا آخر أكثر تفصيلا، كأنّ الواصف فيه يرسم بورتريه للجسد النموذج الذي يُشتهى ويُرغَب فيه. إنه رسم لتفاصيل جسد متّقد بالشهوة يحيل مباشرة إلى الجنس. " قال عبد الملك بن مروان لرجل من غطفان: صف لي أحسن النساء، قال: خذها يا أمير المؤمنين ملساء القدمين، ردماء الكعبين، مملوءة الساقين، جمّاء الركبتين (غير بارزة العظمين)، لفّاء الفخذين، مقرمدة الرفغين (أصلي الفخذ)، ناعمة الإليتين، منيفة المأكمتين (عظيمة ملاقي العجز)، فعمة (ممتلئة) العضدين، فخمة الذراعين، رخصة (ناعمة) الكفين، ناهدة الثديين، حمراء الخدين، كحلاء العينين، زجّاء (رقيقة) الحاجبين، لمياء الشفتين، بلجاء الجبين، شمّاء العرنين (الأنف)، شنباء الثغر (بياض أسنانه)، حالكة الشعر، غيداء العنق، عيناء العينين، مكسَّرة البطن، ناتئة الركب. فقال: ويحك، وأنّى توجد هذه؟ قال: تجدها في خالص العرب أو في خالص الفرس." (16)

ونلاحظ هذا التفنن في تصوير الجسد الأنثوي ورسمه كأنه لوحة فسيفساء. وهو تصوير نابع عن مخيلة ذكورية شبقية تتلذّذ بسحر هذا الجسد، وتتوق إلى الجمال البكر. إنه جمال يثير رغبة الرجل، ويشعل نار الشهوة، فهو الجسد المثال لممارسة كل الطقوس الجنسية الممكنة.

وفي المقابل، نعثر على وصف للجسد الثاني غير المرغوب فيه، الجسد الذي لا جمال فيه ولا خصوبة. " قيل لأعرابي عالم بالنساء: صف لنا شرّ النساء. قال: شرّهن النحيفة الجسم، القليلة اللحم، الطويلة السقم، المحياض الممراض الصفراء، المشؤومة العسراء، السليطة الدّفراء، السريعة الوثبة، كأن لسانها حربة، تضحك من غير عجب، وتقول الكذب، وتدعو على زوجها بالحرب، أنف في السماء، وآست في الماء." [17]

وفي رواية أخرى قيل:" آخر عمر الرجل خير من أوله: يثوب حلمه، وتثقل حصاته، وتُحمد سريرته، وتَكمل تجاربه. وآخر عمر المرأة شرّ من أوله: يذهب جمالها، ويَذرَبُ لسانها، وتعقُم رحمها، ويسوء خُلقها." [(18)]

وممّا هو جليّ في هذا المقام، أن نجد المرأة محصورة في صفتي الجمال والرحم الولود، فإذا ما فقدتهما كأنها فقدت أسباب حياتها، ومبررات وجودها، وفي هذا جور كبير لها. فإذا كان فعل الزمن يمنح الرجل الحلم والعقل والخبرة، فإنه يسلب المرأة–إضافة إلى سلبه إياها جمالها وخصوبتها– ما منحه للرّجل، فتصبح جسدا خاويا فارغا من قيمه الجمالية الظاهرة، وحتى من قيمه المعنوية الباطنة. إنه إقصاء للجسد الأنثوي، وتهميش للمرأة، وسلب لكيانها.

وأيّا ما كان جوهر الشأن، فقد تراوحت النظرة إلى الجسد الأنثوي بين التقديس حدّ التأليه، وبين التدنيس حدّ المسخ. والمرأة عبر تاريخها الطويل لم تكن إلاّ ضحية الثقافة الذكورية الاستيلابية، ورهينة التصوّرات الكهنوتية المتسلّطة. لم تحظ بمكانة مرموقة إلاّ في مرحلة المجتمع الأمومي الموغل في القدم، ثمّ فقدت هذا الموقع لتتدنى منزلتها إلى مجرد جسد هو ملكية جماعية أو فردية للرجل. وبتحويل الأسطورة إلى إيديولوجيا موجهة توجيها ذكوريا، تمّ تغريب هذا الجسد وتغريب الجنس كذلك. فبعد أن كان الجنس فعلا مقدسا له طقوسه وأبعاده الروحية عند الشعوب القديمة، أصبح فعلا مدنسا ارتبط قسرا بالمرأة/الشيطان وبالرذيلة. وأضحى الحديث عن الجسد الأنثوي والجنس من أكبر التابوهات في المجتمعات الحديثة.

وممّا يثير الاستهجان حقا، أن يتحوّل هذا الجسد الأنثوي –الذي هو الرأسمال الرمزي للمرأة وموطن ذاتها– إلى سلعة تباع وتشترى في المجتمع الرأسمالي. ولعلّ هذا التحوّل الثقافي والاجتماعي استتبع تغيّرا في النظرة إلى الجنس الذي حُمّل بأفكار سلبته قداسته وطهارته، وهذا ما عبّر عنه نزار قباني قائلا: " إنّ الجنس هو صداعنا الكبير في هذه المنطقة، وهو المقياس البدائي لكل أخلاقياتنا التي حملناها معنا من الصحراء، يجب أن يعود الجنس إلى حجمه الطبيعي، وأن لا نضخمه بشكل يحوّله إلى غول أو عنقاء. الكائنات كلها تلعب لعبة الجنس بمنتهى الطهارة. الأسماك.. الأرانب.. والأزاهير.. والعصافير.. وشرانق الحرير.. والأمواج.. والغيوم.. كلّها تمارس طقوس الجنس بعفوية وشفافية، إلاّ نحن فقد اعتبرناه طفلا غير شرعي وطردناه من مدننا، وجرّدناه من حقوقه المدنية." (19)

نعم، هكذا تمّ تحويل الجنس من ضرورة عضوية يزدهر بها الجسد، ومن قوّة دافعة نابعة من الطبيعة الفطرية للرجل والمرأة إلى فعل مشين مقترن بالعنف والخطيئة – خاصة إذا ما مورس خارج مؤسسة الزواج–، فتحوّل عندئذ إلى مشكلة.

ومهما كان من أمر، فلطالما نُظر إلى المرأة عند شعوب العالم القديمة والحديثة على أنها كائن غير مستقل تابع للرجل، راضخ لسلطانه. وهي نظرة إقصائية اختزالية تعاملت مع الجسد الأنثوي باعتباره أولا، موطنا للجمال والخصب، فإذا ما فقدهما بفعل السنين فقد سبب وجوده، وصار موته خيرا من حياته، وباعتباره ثانيا خزين مغريات وشهوات، وأداة طيّعة للحصول على النشوة الجنسية، والشعور باللذة والإشباع. وقد رسّخت كلّ الأساطير المؤدلجة، والأدبيات العربية والغربية هذه النظرة التي حاصرت الجسد الأنثوي وقيّدته، فلم يستطع أن يخرج من بوتقتها حتى في عصر الإنترنيت.

استنتاجات:

- يشكّل الجسد بؤرة تتمركز حولها كل العلوم والمعارف والفنون باعتباره كيانا ثقافيا متعددا.
- وشم الجسد الأنثوي وشما ثقافيا واجتماعيا جعله وعلى مر الزمن مكمن ضعف وموضع نقص إذا ما قورن بنظيره الذكوري.

- لم يكن التمييز بين المرأة والرجل وليد التمايز الجنسي المفضي إلى التكامل البيولوجي بينهما، بل هو وليد ثقافة مجتمعية سائدة، ونظرة ذكورية استعلائية فيها الكثير من الظلم والجور.
- لطالما ارتبط الجسد الأنثوي بالجنس ربطا قسريا، ونظر إليه نظرة جعلته موطن إغراء وشهوة وفتنة، وبالتالي تمّ تغريب الجنس وتحويله من ضرورة جسدية فطرية ملحة إلى فعل مشين مقترن بالخطيئة خاصة إذا كان خارج مؤسسة الزواج المعترف بها اجتماعيا.

الهوامش :

[1] فريد الزاهي: الجسد والاستراتيجية المظهرية في الثقافة العربية الإسلامية"، مجلة الكرمل، عمان، الأردن، العدد 54، 1998، ص 104.

[2] عبد الله محمد الغذامي: ثقافة الوهم- مقاربات حول المرأة والجسد واللغة-، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط2، 2000، ص 59.

[3] هشام العلوي: الجسد والمعنى- قراءات في السيرة الروائية المغربية-، شركة النشر والتوزيع المدارس، الدار البيضاء، ط1، 2006، ص 20-21.

[4] التوراة، سفر التكوين 3: 1-7.

[5] الطبري: جامع البيان عن تأويل آي القرآن، مطبعة الحلبي، مصر، الجزء 1، 1954، ص229-230.

[6] كاظم الحجاج: المرأة والجنس بين الأساطير والأديان، دار الانتشار العربي، بيروت، ط1، 2002، ص 35.

[7] إبراهيم محمود: جماليات الصمت في أصل المخفي والمكبوت، مركز الإنماء الحضاري، دمشق، 2002، ص 123.

[8] صلاح صالح: سرد الآخر- الأنا والآخر عبر اللغة السردية-، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط1، 2003، ص 136.

[9] خالد القشطيني: الساقطة المتمردة- شخصية البغي في الأدب التقدمي-، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط1، 1980، ص 25.

[10] تركي علي الربيعو: العنف والمقدس والجنس في الميثولوجيا الإسلامية، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط2، 1995، ص 90.

[11] سلام خياط: البغاء عبر العصور، دار رياض الريس، القاهرة، (د.ت)، ص 88.

[12] فوزي العتيل: الفولكلور ما هو، مكتبة مدبولي، القاهرة ودار ميسرة، بيروت، (د.ت)، ص 147.

[13] غالي شكري، (1978)، أزمة الجنس في القصة العربية، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط3، ص7.

[14] لطفي الخوري: معجم الأساطير، دار الشؤون الثقافية، بغداد، الجزء1، (د.ت)، ص 23.

[15] خديجة صبار: المرأة بين الميثولوجيا والحداثة، إفريقيا الشرق، المغرب، 1999، ص 62-63.

[16] ابن عبد ربه: العقد الفريد، تحقيق محمد سعيد العريان، دار الفكر، بيروت، الجزء7، (د.ت)، ص 101.

[17] المصدر نفسه، الجزء7، ص 105.

[18] نفسه، الجزء7، ص106.

[19] نزار قباني: عن الشعر والجنس والثورة، منشورات نزار قباني، بيروت، ط1، 1972، ص 18-19.

قائمة المصادر والمراجع:

1- **ابن عبد ربه:** العقد الفريد، تحقيق محمد سعيد العريان، دار الفكر، بيروت، الجزء7، (د.ت).

2- التوراة، سفر التكوين 3.

3- **الحجاج** (كاظم): المرأة والجنس بين الأساطير والأديان، دار الانتشار العربي، بيروت، ط1، 2002.

4- **الخوري** (لطفي): معجم الأساطير، دار الشؤون الثقافية، بغداد، الجزء1، (د.ت).

5- **خياط** (سلام): البغاء عبر العصور، دار رياض الريس، القاهرة، (د.ت).

6- **الربيعو** (تركي علي): العنف والمقدس والجنس في الميثولوجيا الإسلامية، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط2، 1995.

7- **الزاهي** (فريد): الجسد والاستراتيجية المظهرية في الثقافة العربية الإسلامية"، مجلة الكرمل، عمان، الأردن، العدد 54، 1998.

8- **شكري** (غالي): أزمة الجنس في القصة العربية، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط3، 1978.

9- **صالح** (صلاح): سرد الآخر- الأنا والآخر عبر اللغة السردية-، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط1، 2003.

10- **صبار**(خديجة): المرأة بين الميثولوجيا والحداثة، إفريقيا الشرق، المغرب، 1999.

11- **الطبري:** جامع البيان عن تأويل آي القرآن، مطبعة الحلبي، مصر، الجزء 1، 1954.

12- **العتيل** (فوزي): الفولكلور ما هو، مكتبة مدبولي، القاهرة ودار ميسرة، بيروت، (د.ت).

13- **العلوي** (هشام): الجسد والمعنى- قراءات في السيرة الروائية المغربية-، شركة النشر والتوزيع المدارس، الدار البيضاء، ط1، 2006.

14- **الغذامي** (عبد الله محمد): ثقافة الوهم- مقاربات حول المرأة والجسد واللغة-، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط2، 2000.

15- **قباني** (نزار): عن الشعر والجنس والثورة، منشورات نزار قباني، بيروت، ط1، 1972.

16- **القشطيني** (خالد): الساقطة المتمردة- شخصية البغي في الأدب التقدمي-، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط1، 1980.

17- **محمود** (إبراهيم): جماليات الصمت في أصل المخفي والمكبوت، مركز الإنماء الحضاري، دمشق، 2002.

Abstract:

The body is considered from of everything. It's a form who go from it and crossroads all forms , and it's basically stable form who accepts accommodate a series of acts and humanity practice such as sexual practice. it is present in everything , in art , philosophy , myth , literature , science , politics and ethics . Everything revolves around the body and what raised from the sensory and moral thrill . and because the female body directly linked to this thrill , i wanted to highlight it by revealing the dialectical relationship between him and the sex as a practice which show the specifications of this body , and also detect a turning depicting the female body from the sacred to the defiled by making it strange and silencing women as a being from a second – class or third in the Authoritarian male – dominated society which looks at her as created only to serve and satisfy the male physical instincts on the one side , and pregnancy and raising children on the other side although the Islam grants women a prominent place and gave her freedom just like men , and make the basis of the relationship between them love and tranquility not violence and inequality .

Conclusions :

- The body constitute a focus centered around it all the sciences and knowledge and the arts as a multi – cultural entity .
- Over time , the woman's body was stamped culturally and socially that's what made it a niche of weakness compared to the mal counterpart .
- The discrimination between men and women wasn't due to sexual differentiation leading to the biological complementarity between them , but because of the prevalent socially culture and a masculine look where a lot of injustice .
- For as long as the woman's body has been linked to sex forcibly linking , and it was apparently the source of temptation and lust and strife , and therefore the sex became stranger and it has been transformed from a fungal physical necessity to a disgraceful act associated with sin especially if it is outside the institution of marriage recognized socially .